استخدام ضمير المتكلم في رواية جبرا

د. مهنّد يونس

في العديد من الروايات العربية المهمة، يستخدم الروائيون ضمير المتكلم من دون أن يكون هذا الضمير معبّراً عن عزلة الشخصية العميقة إزاء العالم الخارجي ومن دون أن تكون قطيعته قطيعة حقيقية مع الآخر. أي ليس هناك ما يبرر استخدام ضمير المتكلم، إذ هو مجرد رد فعل للحوار الأخير مع مخاطب ما.

ولا شك أن ضمير المتكلم لا يحقق الإقناع أمام القارئ إلاّ في حالات دقيقة جداً كأنْ تكون الشخصية في وضع لا يمكن إصلاحه مع العالم أو أن تكون قد اتخذتْ موقفاً ما من العالم المحيط بها. ولكي يتم الإقناع بذلك فإن ردود فعل الشخصية غير متوقعة البتة من لدن القارئ، أما حين يتوقع القارئ مسبقاً ما ستقدم عليه الشخصية بعد هذا الفعل أو ذاك، فإنّ الإقناع بضمير المتكلم غير ممكن أبداً.

يحاول بطل **صيادون في شارع ضيق** أن يخاطب القارئ بضمير المتكلم مبرراً ذلك بوضعه الخاص الذي يختلف عن وضع كلّ شخوص الرواية الآخرين. فهو البطل المسافر الذي يبحث عن مأوى وعن هوية في مدينة يكتشفها ويكتشف أهلها لأول مرةٍ في حياته أثناء سير الرواية، لكنه بالرغم من ذلك لا يقاسي من عزلة حقيقية، بل يحاول أن يلتحم مع عالمٍ لا يجد القارئ أنه يتجانس حقاً معه.

البطل في هذه الرواية لا يتخذ موقفاً إزاء الأحداث. بل يكتفي بروايتها أو التعليق عليها؛ وهو ما يمكن أن يقوم به ضميرُ الغائب بدلاً من ضمير المتكلم. والشخصيّة الأولى في رواية جبرا لا تأتي ردود فعل خطيرةً إلاّ مع اقتراب انتهاء الرواية. أي أن الرواية تمضي بشكلٍ طبيعي، رغم أن بطل الرواية يوحي أول الأمر بإشكالية عاليةٍ وخاصة تؤهله لدور من هذا المستوى، لكن تلك الإشكالية تتجزأ بهدوء بانضمام الشخصيّة الأولى إلى شخصيات الرواية الأخرى، وبرضوخها لعالم تلك الشخصيات على الرغم من تعارضه معها في الظاهر.

إننا لا نناقش سلوك تلك الشخصيّة في الرواية لكننا لا نتفق مع استخدامها ضمير المتكلم، لأن استخدام هذا الضمير داخل الرواية يقتضي تأملاً في وضع خاص تهيّئ له قطيعة طويلة بين بطل الرواية

وكل العالم من حوله. وهذه القطيعة تستوجب زمناً أو ما يعادله موضوعياً داخل الرواية، مثلما يحدث على سبيل المثال في رواية جبرا الموسومة **البحث عن وليد مسعود** إذ يكون استخدامُ ضمير المتكلم مُبرَّراً تماماً ومقنعاً للقارئ لأن هناك مراجعة لزمن بعيد سبق زمن الرواية تقوم بها هذه الشخصيّة أو تلك مبررةً من خلالها انغلاقها لفترة ما عن العالم الخارجي للتأمل في موضوع خطير وعدم الاكتفاء بالتعليق على أحداث تقع في لحظة تطور الرواية أمام القارئ، على غرار ما نجد في **صيادون في شارع ضيق**. إننا نعتقد أن استخدام ضمير المتكلم من لدن إحدى الشخصيات يستوجب زمناً طويلاً يبدأ قبل زمن الرواية ويتعلق بحياة الشخصيّة الماضية التي سبقت صفحات الرواية.

المتكلم لا يصف بالضرورة ما يحدث في الخارج وصفاً تفصيلياً. إنه لا يتكلم بالضرورة، وهو حتماً لا يتكلم بصوتٍ عالٍ. إنه صامت أكثر منه متكلماً: إننا لا نسمعه بل نقرأ أفكاره. ولكي تقنعنا الرواية المكتوبة بضمير المتكلم، فعليها أن تفعل ذلك قبل كل شيء بصمت بطلها المعبر الموحي بالكثير. حين يتكلم مارسيل عن شارل سوان على سبيل المثال في **البحث عن الزمن الضائع**، فإن مارسيل لا يقول لنا إن سوان فعل هذا الفعل أو ذاك. إن صوته يضمحل تماماً، لكننا نراه في كل سلوك يأتيه «سوان» لأننا نعرف أن مارسيل هو الذي يمسك دفة الرواية التي تقدم وجهة نظره.

على ضمير المتكلم أن يوحي لنا بما يمكن أن يحدث لا ما حدث بالضرورة، وهو ما يحققه جبرا في **البحث عن وليد مسعود** أي أن **صيادون في شارع ضيق** لا تمتلك نسبية الأشياء واحتمالات الرواية المتعددة على غرار ما يتحقق في **البحث عن وليد مسعود**.

الرواية بضمير المتكلم لا تكون كذلك لأن بطلها يتكلم بهذا الضمير، بل هي الرواية التي لا يمكن كتابتها بضمير آخر سوى ضمير المتكلم. ذلك أنّ البطل بهذا الضمير لا يستطيع أن يقيم حواراً مع الآخر، وإن فَعَلَ فلكي يجيب على سؤال ما لا ليفكر حقاً بصنع حوارٍ طويلٍ معه. أما بطل **صيادون في شارع ضيق** فيدير بالأحرى حواراً «بالشكل» الذي يحلو له مع شخصياتٍ عديدة، ثم يتركها لوهلة مكلماً القارئ على عجل قبل أن يعاود حواراً آخر مع هذه الشخصية أو تلك. كما أن ضمير المتكلم لا يفكر باسترجاع كل أحداث يومه بكل تفاصيلها، فهو لا ينقل للقارئ سوى انطباعات هي خلاصة حياته الماضية التي لا يفكر حقاً بنقلها للقارئ بشكل قسري مباشر: **«في الشارع كان الزحام يخف والمكان يزداد فوضى. وكانت الشوارع الجانبية، وهي طرق سيئة الإضاءة تحت الظلام الزاحف وكثيرة النفايات عند الزوايا، تشبه الوديان العميقة الضيقة التي تمتص أو تتقيأ الأشكال البشرية المجهولة باستمرار. لكن الفتيات كُنّ أشدَّ غموضاً من كلّ ما عداهن، خاصةً منهن أولئك اللواتي يرتدين السوادَ من الرأس إلى القدم، ويمشين كنساء الأحلام، ويخبّئنَ في ثناياهنَّ عالماً من الأسرار التي لا تُباح. وقف شَبَحان أسودان من هذا النوع في فسحة أحد الممرات إزاء كومة من الأقذار، كأنهما ذبابتان عظيمتان (...)»**[1].

على ضمير المتكلم أن يوحي لنا بما يمكن أن يحدث، لا ما حدث بالضرورة، وهذا ما لا يحققه جبرا في «صيادون في شارع ضيق».

يتطور ضمير المتكلم في رواية جبرا بشكل يحترم تماماً تسلسل الزمن الخارجي وتتابع الأحداث وفقاً للنظام الزمني المألوف. وذلك ما يحدث في **صيادون في شارع ضيق**. ولكن على النقيض من ذلك، فإنّ ضمير المتكلم لا يرتبط البتة بالزمن الخارجي، إذ لا يمكن أبداً تنظيمُ ذاكرة الشخصية وإرغامها على تتبع الأحداث أولاً بأول من دون أن تغفل أيَّ تفصيل صغير ومن دون تقديم أو تأخير في استرجاع التفاصيل.

بوسعنا أن نتصور رواية مثل **صيادون في شارع ضيق** وهي تبدأ من صفحتها الأخيرة ثم تسترجع في صفحات الرواية حياتها الماضية أو تتحرك في جميع الاتجاهات... على العكس مما نرى في الرواية التي تبدو تاريخاً لسيرة ذاتية تبدأ في الموطن الأول، ثم تتحرك في الترحال الطويل بحيث يصبح ضميرُ المتكلم وسيلةً ثانوية لا غاية أولى في كتابة الرواية.

السارد بضمير المتكلم لا يصف بالضرورة ما يحدث في الخارج وصفاً تفصيلياً، كما أسلفنا، بل يروي ما يمكن أن يحدث لا ما حدث تماماً. حين يتكلم بطل **صيادون في شارع ضيق** يبدو لنا وكأنه يكلمنا عن أشخاصٍ ما زال يحاورهم ويجلس معهم بشكل لا يمتلك معه ضميرُ المتكلم عمقاً سيكولوجياً.

هناك مواقع في الرواية يستعيد فيها المتكلم ذكرى خطيبته في القدس، وهي الخطيبة التي لقيتْ حتفَها في ظروف مأساوية. لكن هذه الاستعادة تظل هامشية، إذ يؤطرها ضميرُ المتكلم الذي يتابع مسيرةَ الأحداث بشكلٍ أفقي من دون تعارضاتٍ أو تشابكات حقيقية في الأزمنة وفي الأفعال. لذا يكون بوسعنا أن نتساءل عن جدوى استخدام ضمير المتكلم.

إنّ ما نعنيه باستخدام ضمير المتكلم داخل الرواية هو أوسع من مواكبة ضمير الشخصية لما يحدث في الخارج، وهو أوسع من تقنية وجهة النظر. إن مبررات استخدام ضمير المتكلم في الرواية تختلف تماماً عن مبررات استخدام ضمير الغائب. ويعود ذلك إلى أن الضمير الأخير لا يقتضي أن تمتلك الشخصية بالضرورة وعياً عالياً: أي أن الضمير الغائب يستطيع أن يحتوي أية شخصية من شخصيات الرواية

---

(١) جبرا إبراهيم جبرا، **صيادون في شارع ضيق**، بغداد، مكتبة الشرق الأوسط، ١٩٨٥، ص ٣٢.

سواءً الشخصيات الأولى أو الثانوية، على النقيض من ضمير المتكلم الذي يتطلب استخدامه تبريراً من لدن الكاتب.

من أهم مبررات استخدام هذا الضمير هو الحنين إلى الغائب: إلى لحظة بعيدةٍ في الزمن الماضي الذي يقتضي من المتكلم عزلةً عميقة عن الشخصيات الأخرى ليتمكن من استحضار حالةٍ قديمة وتعميقها أمام القارئ، وعلى غرار ما يحدث في رواية أخرى لجبرا هي **السفينة** التي برَّر فيها المؤلفُ استخدامَ ضمير المتكلم بشكلٍ مقنع: عزلة البطل في السفر وتوقفه عن مزاولة أي فعلٍ خارجي يبرر تماماً استخدام ذلك الضمير وهيمنته على رواية **السفينة**.

لا يصلح ضمير المتكلم للرواية إلاّ إذا كان ملائماً لصنع شخصية تمتلك معادلاً موضوعياً. يستطيع السارد الخارجي أن ينقل لنا بضمير الغائب مجموعةً هائلة من الأخبار داخل الرواية، على النقيض من ضمير المتكلم الذي لا ينقل أخباراً ولا يستعرض أحوالاً ولا يصف أشياء. إنه حصيلة ردود أفعالٍ وانطباعات قد تتعلق بهذا الفعل أو ذاك أو تكون نتيجةً له لكنها لا تقدم الفعل نفسه. لا يمكن لضمير المتكلم أن يكون وسيلةً لغايةٍ ما. إنه الموضوع نفسه.

إن غياب وليد مسعود على سبيل المثال في **البحث عن وليد مسعود** يبرر بحثَ الشخصيات الأخرى عن الشخصية الغائبة بضمير المتكلم. ذلك ما يفعله جواد حسني بحثاً عن الغائب أو ما يقوم به عيسى ناصر بعد رحيل مسعود الفرحان عن العالم؛ إنّ فعلاً بقوة الغياب أو الرحيل يبرر استخدامَ ضمير المتكلم بعد إحداث قطيعة كبيرة مع المألوف، وهو الضمير الذي يلائم تماماً الشخصية التي ظلت على قيد الحياة بعد رحيل شخصية أخرى أو غيابها، وكان بين الشخصيتين في ظل حياة الشخصية الراحلة علاقة وطيدة. يعمل ضمير المتكلم في عزلةٍ تماماً وهو لا يستعيد أحداثاً ماضية كما وقعت في المرة الأولى ولا يستعرض بسرعة كلّ تفاصيل الحياة اليومية. إنه في قطيعة حتى مع القارئ ولأنه يعمل بصمت بعد تعرضه لأزمةٍ حادة. وهو يستطيع أن يستمر في عزلته على مدى صفحاتٍ طويلة قد تستغرق الرواية برمتها، إن كان هذا الاستمرار يتفق مع طبيعة الشخصيّة المتكلمة. كما ينبغي أن لا يسرد ضمير المتكلم الأحداث سرداً تقليدياً. هذا الضمير هو حصيلة انطباعات ولا يقدم معلومات كما يفعل ضمير الغائب، وما نريد أن نقوله هو أن ضمير المتكلم لا يقدم رواية تقليدية بسرد تقليدي ولا ينقل معلومة. إنه بالأحرى بناء الشخصية وطبيعتها لا الأفعال التي تقوم بها.

في **السفينة** يتحقق ذلك ويقوم ضميرُ المتكلم بتقديم الشخصية والتعريف بهويتها من خلال استعادة الماضي. إن استخدام ضمير المتكلم ملائم تماماً في وضعٍ مثل هذا، على النقيض من ضمير الغائب الذي قد يكتفي بسرد أحداث من دون أن يفلح في الإقناع بعزلة الشخصية وانقطاعها عمّا حولها. ضمير المتكلم يقدم مشروع رواية ولا يقدم رواية، إذ تستحيل الشخصية اليومية المألوفة إلى شخصية مُغايرة تكتفي بالنظر إلى العالم من دون أن تعايشه. إنها تقدم عالماً صامتاً خاضعاً للتأمل: تخفف حركة السفينة من وطأة ذلك الصمت وتكسر حدة السكون: **وأنا أيضاً نمت في الحال. ولكنني أفقت وكأنني لم أنم، وليس في عيني أثر للنوم. أفقتُ على صوت الموج يصفق جنب الباخرة صفقاً نظيماً مداعباً (...)**»[٢]

وفي موقع آخر: «**كان القمر قد غاب، فاسوّد امتداد اليَمّ حولنا تحت بريق النجوم الكبار المتراصة، وإيقاع الآلات في جوف الباخرة في ضربٍ وتير مسموع (...)**»[٣]

في **البحث عن وليد مسعود** يصبح غياب وليد والبحث عنه مبرراً في تأملات الدكتور طارق رؤوف في برج الجدي، ثم يكون ذلك سبباً في مراجعة ماضي وليد مسعود برمته من دون أن ينقطع طارق رؤوف عن مخاطبة القارئ بضمير المتكلم. أن حالات التأمّل والعزلة العميقة والقطيعة الحادة مع الآخر تبرر صوت الرواية الخافت واستخدام ضمير المتكلم.

إن أفضل استعمال لضمير المتكلم نعثر عليه في **البحث عن وليد مسعود**. ذلك أن صدمة قويةً بقوة الموت هي التي تُحدثُ فقط قطيعة مطلقة مع الخارج. والأمثلة عديدة في الرواية الأوروبية، فعلى سبيل المثال يأتي موت الأم في رواية **الغريب** لكامو وفي بداية الرواية سبباً مهماً في تبرير لغة ميرسو وغربته وعزلته عن العالم: أي أن فعل الموت يتجانس مع ضمير ميرسو. وقبل تلك الرواية وفي مطلع هذا القرن، وفي رواية **البحث عن الزمن الضائع** يكون موت ألبيرتين سيمونيه سبباً مهماً في مخاطبة مارسيل قارئه بضمير المتكلم، وهو يستحضر كل تفاصيل حياته الماضية مع الراحلة قبل موتها. الموت أو الماضي البعيد في ذاكرة الشخصية هما مبرران مهمان لضمير المتكلم مثلما يحدث في **البحث عن وليد مسعود**، هذه الرواية التي تتواءم تماماً مع ضمير من هذا النوع وتحقق قناعةً عالية بغياب الشخصية الأولى، غياب يكتنفه الغموض مثل ضمير المتكلم الذي يخضع لاحتمالاتٍ عدة ولغموضٍ كبير على النقيض من ضمير الغائب الذي لا يخضع لاحتمالات كثيرة ولا لغموضٍ كالذي يحققه ضمير المتكلم!

بغداد

---

(٢) جبرا، **السفينة**، بيروت، دار الآداب، ١٩٨٣، ص ١٠

(٣) المصدر السابق، ص ١١